القول الواضح المبين لتوجيه وإرشاد المتبايعين من خلال تأمّلات في سورة المطفِّفين

2023-01-06

الحمد لله الذي أمرنا بإيفاء الكيل والميزان، ونهانا عن التطفيف والنقصان، أحمَدُهُ سُبحَانَهُ وتعالى بما هوَ لهُ أهلٌ مِنَ الحمدِ. وأُثني عليه، وأُومنُ بهِ. وأتوكلُ عليه، فتحَ لكسبِ الرزقِ أبوابًا، وجعلَ لحلولِ البركةِ فيهِ أسبابًا، فأمر بطلب الرزق والإكتساب، ونهى عن العجز والتكاسل وتعطيل الأسباب، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيْكَ لَهُ، أمرَ بالقِسْطِ والإنصاف، ونَهى عن التطفيفِ والإجحاف، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّداً عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وصفيُّهُ مِنْ خلقهِ وخليلُه، أكرمه الله تعالى برسالته، وجعله رحمة بين خليقته، فدلّ صلى الله عليه وسلم على التجارة الرابحة. وأنار منار السبل الواضحة.

هذا محمّدُنا للحقّ أرشَدَنا * ومِنْ بحار الرَّدَى والهُلْكِ أنقذنا
هذا الذي جاء بالحقّ الْمُبِينِ لنا * وأذهب الشِّرْك بالآيات والحُجَجِ
صلّوا على المصطفى ذي الْمَنْظَرِ البَهِجِ

اللهم صلِّ وسلِّم وبارِك على سيِّدِنا محمّد. النبي الكريم. وعلى آله ذوي المجادة والتعظيم. وصحابته أهل السيادة والتكريم. صلاة تفتح لنا بها خزائن جودك العميم. وتقدّس بها أرواحنا في حظائر القدس وفراديس النعيم. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. إنَّ المُتأمِّلَ والمتدبِّرَ فيما تَضمّنَتْهُ سورةُ المطففينَ. هذهِ السورةُ القرآنيةُ العظيمةُ. التي وَضَعَتْ للبيع والشراءِ أُسُساً عادلةً قَوِيمةً، يقولُ اللهُ عزَّ وجل: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ((وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ، أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ، لِيَوْمٍ عَظِيمٍ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ))، يَجِدُ أنَّها تُصَوِّرُ جانباً سيِّئاً مِنَ الواقِعِ العمليّ الإقتصاديّ والإجتماعي، هذا

الجانبُ تمثَّلَتْ معالمُهُ. وتجسَّدَتْ صُورتُهُ. في ظاهرتَينِ ممقوتتَينِ. ساقتْ صفتَهما السورةُ الكريمةُ في أوَّلِهَا وخِتامِهَا، مُشدِّدةً النكيرَ على أصحابِهما: إنّهما ظاهرةُ التطفيفِ في الكيلِ والوزنِ، وظاهرةُ الإستهزاءِ والسخريةِ بالمؤمنين، أيّها المسلمون. ففي بدايةِ سياقِ هذه السورةِ كما ترَوْنَ. شدَّدَ اللهُ عزَّ وجلَّ النكيرَ على المُطفِّفِينَ. وهُم طبقةٌ منَ التجّارِ يُمارِسُونَ سُلوكاً شاذّاً عنِ الفِطرةِ في تجارتِهم، فهُم كما وصفَهُم اللهُ عزَّ وجل:((إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ))، ففي حالِ شرائِهم منَ الناسِ يتقاضَوْنَ لأنفسِهم الكيلَ وافياً، وإنْ كانُوا بائعينَ يُنقِصُونَ في الكيلِ والوزنِ، فكانُوا على هذهِ الصورةِ يتصرّفونَ بلا رقيبٍ أخلاقيٍ يَصدُّهم، وبهذا الأسلوبِ يتعاملونَ دونما رادع إجتماعيٍ يردعُهم، وكأنَّهم أمِنُوا العقابَ. أو نَسوا يومَ الحساب، قال السيوطي بسند صحيح، روى النسائي وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:((لمَّا قَدِمَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم المدينةَ كانوا مِنْ أخبث الناس كيلاً، فأنزلَ اللهُ: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ. فأحسنُوا الكيلَ بعدَ ذلك))، وويلٌ: كلمة عذاب، أو وادٍ في جهنَّم، والمطفِّفين: جمْع مطفِّف، وهو المنْقِص، وحقيقته الأخذ في الكيل أو الميزان شيئاً طفيفاً، أو نزراً حقيراً. أيّها المسلمون. إنَّ التجارةَ في الإسلامِ مباحةٌ. غيرُ مَمنوعةٍ. إذا كانتْ صفتُها ومعاملاتُها لا تتجاوزُ الحدودَ المتعارفَ عليها، وهي خيرٌ عميمٌ. ورزقٌ وفير، فقدْ جاءَ في الأثر كما في إحياء علوم الدين:((عليكم بالتجارة. فإنّ فيها تسعة أعشار الرزق))، ولقدْ كانتْ حرفةَ بعضِ أنبياءِ اللهِ عليهمُ السلامُ، وهِيَ مِنْ أفضلِ الكَسب، ففي الحديث الذي رَوَاهُ الْبَزَّارُ، وصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ. عَنْ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ رضي الله عنه. أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم سُئِلَ:((أَيُّ الْكَسْبِ أَطْيَبُ؟ قَالَ: عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ، وكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ))، وجاءتِ السُنَّةُ كذلكَ مُبيِّنةً أنَّ احترافَ المهنةِ وإتقانَها. والإلمامَ بجوانبِهَا. يُكسِبُ مُحبَّةَ اللهِ تَعَالَى؛ ففي الطبرني عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قال:((إنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبدَ المُحترف))، والتاجرُ الصدوقُ الأمينُ في تجارتِهِ الذي أحسنَ تعاطيها. والتزمَ بأُطُرِهَا وأُسُسِها، وراقبَ اللهَ فيها بِنَفْسٍ وجِلَةٍ خاشية؛ يُباركُ اللهُ له في رِزقِه، ويُوَسِّعُ له في تِجارته، ويزيدُهُ مِنْ واسع فضلِه، ويحشرُه يومَ القيامةِ مع النبيّينَ والصدِّيقينَ والشهداءِ. كما جاءَ فيما روى الترمذي والدارمي عن

أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:((التاجر الصدوق الأمين مع النبيّين والصدّيقين والشهداء يوم القيامة))، إلا إنَّهُ في المقابلِ إذا انحرفَ التاجرُ بتجارتِهِ إلى ما فيهِ إضرارٌ بمصلحةِ المجتمع عموماً، ورضيَ لنفسهِ مقارفةَ المُعاملاتِ المُحرَّمةِ اللا إنسانيَّة، غيرَ عابئٍ بما تدعو إليهِ القِيَمُ والمُثُلُ الأخلاقيّةُ، مُتجاوزاً في ذلكَ حدودَ ما أنزلَ اللهُ، فإنَّهُ بذلكَ يكونُ قد ارتكبَ ظُلماً في حقِّ نفسهِ، واقترفَ جريمةً في حقِّ مجتمعِه، ولقدْ حكى القرآنُ الكريمُ حالَ المُطفِّفينَ منَ الأقوامِ السابقينَ. بعدما انحرفُوا عنِ القسطِ في الكيلِ والوزنِ. وبخسوا الناسَ أشياءهُم، كقومِ شعيب وغيرهم. فأنزلَ اللهُ عليهم عقابَهُ الأليم في قولهِ تَعَالَى في سورة الشعراء:((أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ، وَزِنُوا بِالْقُسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ، وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ، وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ، قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ، وَمَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ، فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ، فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ))، ونفى الرسولُ صلى الله عليه وسلم نسبتَهم إلى جماعةِ المؤمنينَ حيثُ قالَ حينما مرّ على رجلٍ بائع يغشُّ في تجارتِه فقال:((مَنْ غشَّنَا فليسَ منّا))، فالتطفيفُ غِشٌ لصاحبهِ مُذِلٌ، بلَ سرقةٌ تجاريةٌ لا تَحِلُّ، فإنَّهُ وأمثالَهُ منَ المعاملاتِ المُنحرِفَةِ. تَميلُ بمزاوِلِيهَا إلى سبيلِ الإثمِ والفشل، كما أنَّ المجتمعَ الآمنَ يظلُّ بوجودِهَا في ضَرَرٍ ووَجلٍ؛ نظراً لاستنزالِها النِّقَمَ مِنْ ربِّ النِعَم، في البيع والشراءِ على السواء، وفي مسند الإمام أحمد عن وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَع رضي الله عنه قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:((لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ يَبِيعُ شَيْئًا إِلَّا يُبَيِّنُ مَا فِيهِ وَلَا يَحِلُّ لِمَنْ يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا يُبَيِّنُهُ))، وروى الحاكم في المستدرك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:((مَنِ اشْتَرَى سَرَقَةً وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهَا سَرِقَةٌ فَقَدْ شَرِكَ فِي عَارِهَا وَإِثْمِهَا)). أيّها المسلمون. إنَّ الإسلامَ في شموليَّتِهِ عقيدةٌ وسُلُوك، وهوَ في ذاتِ الأمرِ وَعْدٌ ووعيدٌ. وترغيبٌ وترهيب، والمُتأمِّلُ في سورةِ المطفّفينَ يجدُ أيضاً أنَّها تُمَثِّلُ جانباً مُشرقاً آخَرَ. مِنْ أساليبِ الإصلاحِ الفعَّالةِ. وأُسُسِ التربيةِ المُؤثِّرةِ في مواجهةِ

واقع البيئةِ. وواقع النفسِ البشريَّة، فقدْ طالعتْنا هذهِ السورةُ الكريمةُ في وَسَطِهَا على مَشْهدَينِ لِفئتَينِ مُتضادتَينِ منَ الناسِ. هم فِئةُ الفُجَّارِ وفئةُ الأبرار، والآياتُ في هذا السياقُ القرآنيُّ العجيبُ تستعرضُ ما آلَ إليهِ حالُهُمَا نتيجةَ أعمالِهما. لِيتمَّ بذلكَ النَّسَقُ القرآنيُّ التربويُّ في أبهى صُوَرِهِ وأوضحِ دلائلِه؛ فبَعدَ أنْ ذكرَ المولى عزَّ وجلَّ المُطفِّفينَ وسُوءَ عملِهم. وإضرارَهم بالناسِ في تجارتِهم؛ خَوَّفَهُم بأليمِ عِقابهِ. مُشعِراً أحاسيسَهم النفسيَّةَ. وكوامنَهُم الوجدانيَّة، مُنَبِّهاً إيَّاهُم بأنَّ عملَهم هذا سيُردِيهم إلى الفجورِ، وسيسلكُ بهم إلى سواءِ الجحيم، ويخالفُ بِهم عَنْ طريقِ الأبرارِ أهلِ النعيم؛ لأنَّ الجزاءَ حينها سيكونُ مِنْ جِنسِ العمل، وكما تُدينُ تُدان، ولا تَحصدُ أيُّها الزارعُ إلا ما زرعت، قال سبحانه:((كَلا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ))، وقال أيضاً:((كَلا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ))، ففي هذهِ الآياتِ إخبارٌ عن كتابَيْنِ هُما: كتابُ الشرّ للفجارِ وهوَ في سجّين، وكتابُ الخَيرِ للأبرارِ وهوَ في عِليّين، وكلٌ مِنهُمَا مليءٌ بأعمالِ أهله، رويَ عنهُ صلى الله عليه وسلم أنهُ قال:((إنَّ الملائكةَ لَتَصعدُ بِعَملِ العَبدِ فيَستقلُّونه، فإذا انتهُوا بهِ إلى ما شاءَ اللهُ مِنْ سُلطانِهِ. أوحى إليهمْ إنكُمُ الحفظةُ على عبدي، وأنا الرقيبُ على ما في قلبهِ. وإنَّهُ أخلصَ عملَهُ. فاجعلوهُ في عِليين فقدْ غفرتُ له، وإنَّها لتصعدُ بعملِ العبدِ فيُزَكُّونَهُ، فإذا انتهوا بهِ إلى ما شاء اللهُ. أوحى إليهِم أنتمُ الحفظةُ على عبدي، وأنا الرقيبُ على ما في قلبهِ. وإنَّهُ لم يخلصْ لي عملَهُ فاجعلوهُ في سجّين))، فهذا الأسلوبُ البليغُ في الجمع بينَ الترغيبِ والترهيبِ. يُعَدُّ القِمَّةُ بينَ أساليبِ التربيةِ وتَنْبِيهِ المشاعرِ الإنسانيَّة، وهو بالتالي وسيلةٌ ناجِعَةٌ في إصلاحِ الأنفسِ وإيقاظِ ضميرِ المجتمع. أيّها المسلمون. حينما تمرُّ بنا سورة المطفِّفين لنقِف مع آياتها وقفة تدبُّر ومحاسبة، فربَّما كانت السورة تتوعَّد أحدَنا ممَّن يقرؤُها أو يستمع إلى تلاوتها، فلنمتثِل لتحذيرها، فكيف لا يرْعوي مسلم وهو يسمع وعيدَ ربِّه له بقوله تعالى:((أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ))؟. إنّ هذه النصوص الشريفة لو تخلّقنا بها لانقرضت أكثر الخصومات التجارية. وأكثر الغش التجاري. ولكن الجهل بها. أو الغفلة عنها. تجعل كثيراً من الناس يؤثر العاجلة على الآجلة. والله المستعان. فاتقوا الله عباد الله، إحترموا أموال الناس، تعاملوا مع الناس

بالصدق والأمانة وإلا فإنكم ستندمون، ((وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)). اللهم اجعلنا ممّن قالوا: سمعنا وأطعنا، ووفّقنا لما يرضيك عنّا، اللهمّ لا تجعل الدنيا أكبر همّنا. ولا مبلغ علمنا. واجعل الحياة زيادة لنا في كلّ خير. والموت راحة لنا من كلّ شرّ. وتوفّنا وأنت راض عنّا. اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتّباعه، اللهم علّمنا ما ينفعنا وانفعنا بِما علَّمتنا، اللهم قِنَا شحّ أنفسنا. وأعذنا من البخل. يا رب العالمين اللهم اجعل الدنيا في أيدينا لا في قلوبنا. ولا تسلبنا من بعد العطاء. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا رب العالمين. وآخِر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. اهـ